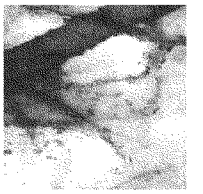

تشيرُ اللافتات إلى المكان

ناصر أبو نصّار

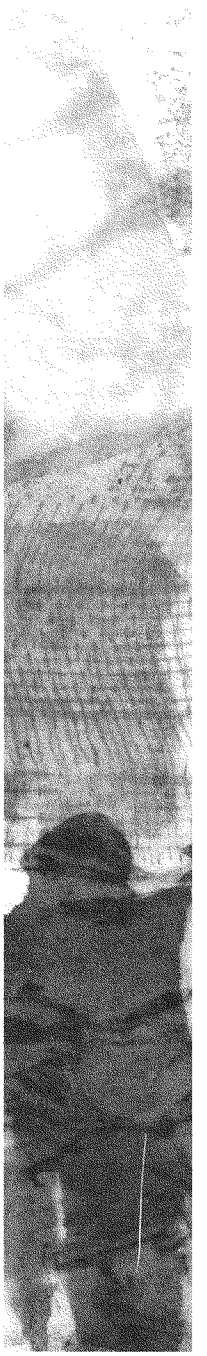

- ١ -

ربما نسي في بيروت كلَّ ما يريد قولَه. يَذْكر أنهُ عاد منها قبلَ ثلاثة أشهر. توقّفت الساعة في تمام السابعة من مساء ذلك اليوم. ربما كتب الأسطر التالية على عتبة المنزل:

«تشيرُ اللافتاتُ إلى المكانِ
نعم ، أنا هنا، أسكنُ شارعَ الكرمل
في الطابق الثالث، ولا شيء فوقي:
لا نجومٌ ولا غيومٌ ولا سماء.
ولولا رقمُ منزلي السابع والستون،
لولا ساعةُ معصمي،
ووردتي وشجرتي،
وظلٌّ يشْبه النباح،
لغابَ كلُّ شيء خارجي
واختفيتُ داخلي
وانكسرتُ ظلاً في الزجاج!»

- ٢ -

عشرة أعداد من مجلة الآداب اللبنانيّة في حقيبته. أَخرج العددَ الأخيرَ وراح يقرأ. عبثًا يحاول أن يقرأ. سائق سيارة السفريّات الذي أخذه من محطة السومريّة «شكلو ملعبن وابن حرام» (أسرّ لنفسه)، بعد أن استمع إلى حديثِهِ مع راكبٍ مستعجل:

ـ بتدفع ألفين، عيني، بنتيسّر.

ـ لأ !

ـ شوف إذا بيقبل الإستاز تقاسمهن معو، كِلُّن ألفين مش محرزين.

ـ لأ، بننطر (أجابهُ «الاستاز» من خلفِ مجلّتِهِ التي تحمل عنوان «اليسار العربيّ: الأزمة والاقتراحات»).

- ٣ -

ـ حضرتك فلان الفلاني؟

ـ نعم.

ـ شنطتك وتفضّلْ معنا!

عندما ظنّ أنه سيصلُ إلى البيت باكرًا تبدّدتْ آمالُه. كان يريد أن يتخلّص من ثلاثة أشياء دفعةً واحدة:

أولاً: رفقتهُ في سيّارة السفريّات التي تملؤها رائحةُ الثوم الشاميّ وصوتُ أمّ عبد الذي جلبتْه. زوّجتِ ابنَها الذي لم يتمّ الثامنة عشرة، وهو يتوضّع قربها مطأطئًا رأسَه ككلبٍ يستمعُ إلى مديح مدرّبه المتبجّح

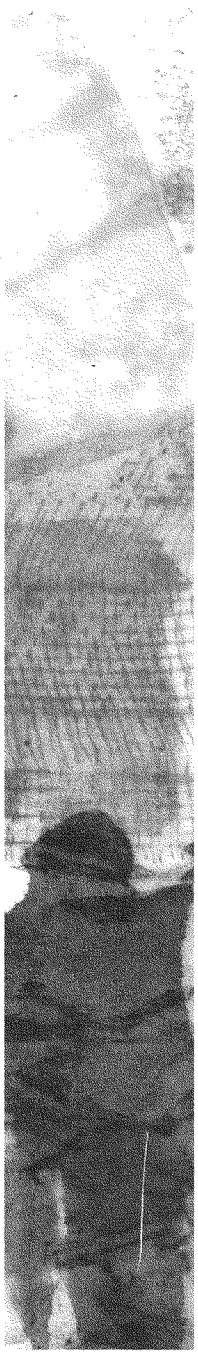

بتربيتهِ الأصيلة. لا شكّ في أنهُ كلبٌ مطيع و«نضايفي،» يحسنُ سحبَ السيفون بعد أن يبول.

ثانيًا: صوتها في سمّاعة التلفون الذي لا ينفكّ يناوشُه. هذا الصمتُ الطويل بينهما على طرفي السمّاعة، أأحسّت أنه هو؟

عندما مرّ بحجرة الهاتف العموميّ على مفرق مقهى «تاء مربوطة،» وَجَدَ نفسَه مدفوعًا إلى دخولها بقوةٍ تَسْلبهُ كلَّ تماسكه الذي رمّمه، يومًا بعد يوم، طوال عاميْنِ ثقيلَي الأثر. في رأسهِ أخذت الصورُ تتلاحق، والأصواتُ تعلو في أذنيه، صوتُه وصوتُها. كأنّ الحجرة حبستْ كلَّ شيء: أفراحَهما والأحزانَ. وجد نفسَه يطلب الرقم 033xxxxxx

يقرعُ الهاتفُ جرسَه الأول. Maximos el Rebellion، هكذا أسمتْه.

يقرع الهاتفُ جرسَهُ الثاني. «جلنار»!

يقرع الهاتفُ جرسَهُ الثالث. «بقولاا بحبّك!»

يقرع الهاتفُ جرسَهُ الرابع. «بحِب حُبك وحبِك!»

يقرع الهاتفُ جرسَه الخامس. (تصرخ في وجهه) «عن أيّ ربّ حفرة عم تحكيني؟»

يقرع الهاتفُ جرسَهُ السادس (يصرخ في وجهها) «ربّك عا ربّ الطايفة، هي ربّ الحفرة يللي عم بحكي عنها!»

يقرع الهاتفُ جرسهُ السابع. ألو.. ألو.....

فيقفل الخطّ.

ثالثًا: العيون التي حاولتْ بناءَ أعشاش النوارس على حيدِ كتفيه، تلك التي تعلّقتهُ مصادفةً من دون أن تدري أو يدري. هو يعلم أنّ شفتيها لن تعودا كما بالأمس. وهي تعلم ذلك أيضًا. ستقشرهما أمام المرآة فرحًا، وستمضغهما حتى تتقرّحا أملاً في بلعِ خيانتها له!

تريدُ السقوطَ عن كتفيهِ، وتسقط. لم يقل لها أبدًا: «ليس ذلك الذي تفكّرين به. لم تكن تجارةُ شروط العرض والطلب تلك قاصرةً في لغةِ الجسدِ، إنما هو مأزق الثنائيّات: الفضيلةُ والخطيئة. فأيّتهما اقترفتِ؟ وبأيّتهما ستبرِّرين هذا السقوط؟ ستفرحين في أيامٍ مقبلةٍ على أعتابِ وداع، مُقنّعةً بفضيلةِ الاختيار الناقص، من دون أن تدركي أنكِ بوداعه اخترتِ خطيئتكِ لا الفضيلة ـ وقد رأى ذلك قبلاً لأنهُ لم يتوقف مثلك عن الحديثِ بلغةِ الأطفال.

ـ حضرتك فلان الفلاني؟

ـ نعم.

ـ شنطتك وتفضّلْ معنا. ليش بتروح كتير على بيروت؟

ـ في قانون بيمنعني اروح عا بيروت؟ احكيلي مشان أبطّل أروح!

ـ حيلك حيلك، راجعت المخابرات قبل هيك؟

ـ راجعت.

ـ ايمتى آخر مرة؟

– بالـ ٢٠٠٧!

– طيّب تفضّلْ معي!

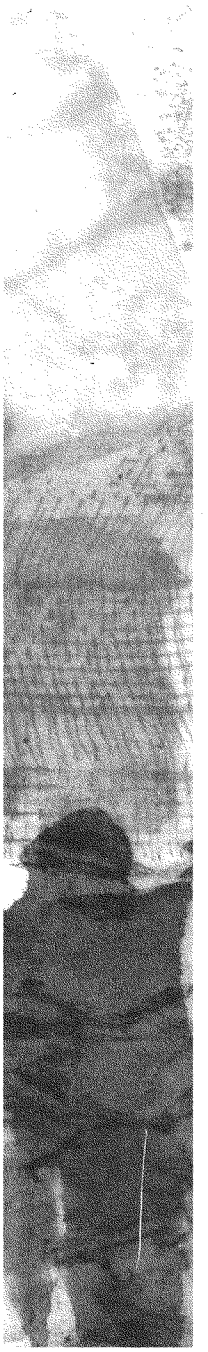

- ٤ -

عندما وضع حقائبَه على السرير ليُخرجَ البيجاما كان النعاسُ يأكله، ويأكلهُ أيضًا غضبٌ وحنقٌ يكادان يفجّران صدره. «لماذا عدت؟ ها؟ لماذا عدت؟ تفووو»!

ـ شو هاي المجلات إللي معك؟

ـ مجلة الآداب اللبنانيّة. بتنباع هون!

ـ طيّب، ليش جايبها معك من بيروت؟

ـ بسيطة. هون بتنباع بـ ٧ دنانير، هناك بتطلع عليّ بـ ٢. إذا بتدفعلي الفرقيّة، بشتريها من هون!

ـ (يضحك) بس يا أستاذ، انت ابن بلد (يتبرّم). يعني هوّي مش ممنوع السياسة، بس يا أخي شو هاي (أخذ يقلّبُ أعداد المجلات)؟ يا أخي شو هاي؟ مممم... (خفض صوتَه كمن يعاتب) «مقاطعة إسرائيل»؟!

ـ وليش مستغرب، آه مقاطعة إسرائيل!

ـ يا أخي هوّي مش ممنوع. بس يا أخي شو هاي؟ «الطائفيّة في العالم العربيّ؟» مممممم! طيّب، احكيلي، وين كنت مقيم بلبنان؟

ـ بالجبل.

التفت المحقّقُ إليه مسرعًا وعيناه تَبْرقانِ بحمرةٍ وشراسةٍ غطّاهما خوفٌ دفين.

ـ وييييين؟ باللجَنووووووب؟؟

ـ قلتلك بالجبل.

هدأ دفعةً واحدة:

ـ آه بالجبل.

لبس البيجاما واستلقى في سريره يدخّنُ سيجارةً قبل النوم، ويستذكر مجريات التحقيق الذي استمرّ خمس ساعات على الحدود. أيُّ أحمق هذا الذي لا يميِّز بين الجبل والجنوب! يضحكُ في سريره: «ارتعب أخو الستة والستين. الجنووووووووب!» قفز فرحًا، وأشرعَ شباكهُ، جامعًا في جسده أجراسَ صوتهِ النابضة، ودفعةً واحدة، فجّرها في الشارعِ المقفر: جنووووووووووووب.

تسلّقهُ القهرُ والفرحُ معًا: فرحٌ يهبّ عليه من الجنوبِ حتى ليملأ كتفيْه بالريشِ ويحوزَ جناحين ويطير بعيدًا، وقهرٌ يتسلّقه ابتداءً من شارع الكرمل ـ الطابق الثالث ـ بناية رقم ٦٧. يلقي بقمعِ السيجارة ويصرخ: «فليحترقْ كلّ شيء.» ينظرُ إلى الأعلى فلا يرى شيئًا. لا نجومٌ ولا غيومٌ ولا سماء!

ناصر أبو نصّار

كاتب. له مجموعة شعريّة بعنوان: **أنتَ المستوحشُ للخضرة** (دار فضاءات).